

ولا نحسب أنا نتجنى على ابن سنان حين نقول إن جهده لم يسفر عن إضافة حقيقية إلى ما قدمه البلاغيون قبله ، على الرغم من محاولته انتهاج طريق جديدة في معالجة الظواهر البيانية ومناقشته للسابقين في آرائهم . وإذا كان له من أثر يذكر في مجال البحث البلاغي فإنه يكاد ينحصر في موضوع الفصل بين مصطلحي « الفصاحة » ، و « البلاغة » الذي أوضحناه ، ولا شك أن تركيزه عليه بهذا الشكل كان له أكبر الأثر في توجيه البلاغيين المتأخرين نحوه ، وجعله مبدءاً مقررًا في الدرس البلاغي منذ عصر السكاكي إلى وقتنا الحاضر ، وليس لهذا الأثر قيمة في رأينا ، بل إنه كان عملاً سلبياً أكثر منه إيجابياً ، وسوف نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في القسم الثاني إن شاء الله .

في الطرف المقابل لابن سنان كان موقف عالم بياني آخر عاصره ، وسبق أن نوهنا بفكره البلاغي العظيم الذي أثمرته دراسته لإعجاز القرآن وهو عبدالقاهر الجرجاني لكننا هنا نعرض له من زاوية أخرى أضف منها إلى البحث البلاغي ، هي وصف التقاليد الفنية للبيان العربي ، والحديث عن أصوله وظواهره التي تتراءى من خلال النصوص الأدبية ، فلم يكن البحث عن وجوه الإعجاز البلاغي ودلائله همّه أو شاغله هنا على نحو ما كان هناك . يتمثل جهد عبدالقاهر في هذا الشأن في كتابه « أسرار البلاغة » . وعنوان الكتاب ظاهر الدلالة على موقف التقابل بينه وبين ابن سنان كما ألمحنا ، لكن عبدالقاهر لم يشغل نفسه بتحديد مفهوم « البلاغة » كما شغل ابن سنان نفسه بتحديد « الفصاحة » ، وربما كان ذلك لإيمانه بترادف الكلمتين ، فلم يشأ أن يتطرق إلى هذا الموضوع مكتفياً باستخدام الكلمة التي غلبت في الاستعمال .

ومع عمومية عنوان الكتاب ، وضخامة حجمه النسبية ، فليس هناك إلا موضوعان اثنان استغرقا صفحاته ، هما التشبيه والمجاز أو بعبارة أدق التشبيه والاستعارة ، والحق أن عبدالقاهر قدم في كلا الموضوعين دراسة مستفيضة عميقة الأبعاد لم يظفر البحث البلاغي بمثلها من قبل ، بحيث يمكن القول بأن ما جاء في كتب البلاغيين بعد ذلك من زيادات أو امتدادات ليس إلا تنويعاً على النعمة التي عزفها هو من قبل .